المبحث الحادي عشر:

الأبعاد الاستثمارية للإبداع.

إنني ارى بأن جميع الأسئلة المتقدم ذكرها غاية في الأهمية ولكن السؤالين القادمين، يتسمان بأهمية وخصائص مميزة، لأنهما يفتحان الأبواب على مصراعيها -كما أزعم -أمام الفكر والضمير والعقل والإدراك (للمجتمع والدولة والفرد، في الحاضر والمستقبل)

البند الأول: ما المقصود بالدعوة للإبداع ، وماهي أبعاده؟

هذان السؤالان اللذان يتمثلان في:

- **السؤال الأول**، هل الدعوة إلى الإبداع والابتكار، ضرب من العبثية والهدر والتبذير؟

- **والسؤال الثاني**، هل هي دعوة إلى منهجية إستراتيجية وانتقال نوعي إلى الخلق والإبداع والابتكار الفردي والجماعي و"التثمير" في مجتمع الدولة القوية؟

إن الإجابة على هذين السؤالين تستحق التدقيق والتحقيق لما للإجابة من أثر إستراتيجي على التكوين التربوي والبنيوي للفرد والمؤسسة المجتمعية، لذلك فإني أرى بأن الإجابة المختصرة قد لا تفيهما حقهما، ولكنني لابد لي من الإجابة ولو باختصار عن كل منهما فيما يلي متمنياً على المعنيين والمختصين إيلاء هذا الطرح أهميته التي يستحقها لأن المثالين القادمين قد يمسا الموضوع من بعيد وهذا الأمر يجافي المنطق العلمي والفائدة المرجوة وأنا حقيقة لا أريد أن أعطي مواعظ للمختصين الكبار وغيرهم، ولكني أجد من حقي كمواطن أن أحرك فكرة هنا أو فكرة هناك متوخياً أن لا يكون تحريكي لهذه الفكرة أو تلك لمجرد التحريك، لأننا

obeikandi.com

لانعدم فرسان التفكير والإبداع في بلدنا وبين أفراد شعبنا المبدع، أما الذي سأطرحه يتجسد في مثالين متواضعين هما:

المثال الأول:

- إنني أنظر إلى الفرد الذي يحقق إنتاجاً عادياً داخل أسرته، يمثل حالة إنتاجية(1) في تلك الأسرة، بالقياس مع الأفراد الآخرين الذين لا يعملون ولا ينتجون في نفس الأسرة.
- وأرى بان الأسرة التي تحقق بجميع أفرادها إنتاجاً عادياً داخل المجتمع الذي يعيش بطالة قاسية، هي أسرة تقدم إنتاجية(2) إذا ما قورنت بالأسر غير العاملة في وسط المجتمع نفسه.

(1)الإنتاجية تشكل حالة مميزة من الإنتاج من حيث الوفرة والنوعية.

(2)وبكلمة أخرى إن إنتاج العمل الذي يعتمد على التقنيات الفنية المتطورة يختلف عن إنتاج العمل الذي يعتمد على التقنيات التقليدية، من حيث الريعية والتكاليف والنوعية وسرعة الإنجاز وتحقيق الرفاهية للمجتمع...الخ.

من هنا نرى بأن الفرد المبدع داخل الأسرة ينتقل بها من الحالة الإنتاجية العادية والحالة اللاإبداعية إلى الساحة الإبداعية، كانتقال الأسرة المنتجة داخل المجتمع، التي انتقلت بأعضائها من حالة الإنتاج العادية، إلى الحالة الإنتاجية المميزة داخل المجتمع نفسه.

المثال الثاني:

إنني أؤمن بأن المجتمع الذي ينتقل من مواقع (الاستهلاك إلى مواقع الإنتاج، ومن مواقع الإنتاج إلى مواقع الإنتاجية"، ومن مواقع الإنتاجية إلى مواقع الإبداع، "الفردي والأسري والاجتماعي" في أي مجال من مجالات الحياة، يكون قد انتقل إلى مصاف المجتمعات المبدعة التي أصبح يحسب حسابها، وبهذا النقلة النوعية الجذرية يتبوأ المجتمع نفس مكانة المجتمعات التي تستحوذ على مكامن القدرة والمهابة في كل مجال من المجالات الحياتية.

obeikandi.com

وبالعودة الى السؤالين السابقين أرى الإجابة تلح علينا وتقول :

! - إن العبثية منتفية في هذا المجال، وبالتالي فإن الهدر والتبذير إن بدا في المراحل الأولى من حيث الإنفاق و الإعداد والترتيب وتوفير المستلزمات اللازمة للإبداع والمبدعين .. الخ إلا أنها على المدى المتوسط والبعيد، هي عملية بناء وتثمير بكل ما للبناء والتثمير من معنى، ولكنها تبدو كذلك لأنها تتناول الإنسان ومؤسساته ومعروف أن الطفولة البشرية هي طفولة طويلة المدى زمنياً وبنائياً، لذلك فهي تستوجب الزمن والإنفاق لحين، وهذا الأمر يشكل بحد ذاته عملا بنّاءاً استراتيجيا، بل نستطيع أن نقول بأنه قد يكون شاملاً لكل مجال من مجالات الحياة.

إن هذه الدعوى التي قدمها الدكتور حسنية، إلى الإبداع الجمعي تشكل نهجاً استراتيجياً استثمارياً لأهم عوامل الاستثمار في الحياة والتي تتناول الإنسان (الفرد -وطلائع المجتمع) لذلك فإن تحري السلوك الابداعي غاية في الأهمية في المجتمعات التي تتطلع إلى الغد المشرق، وهذا التحري متاح للمجتمع نفسه ولأعضاء الأسرة وبخاصة الأم المهتمة وزوجها.

وبحسب "جلفورد" نستطيع ملاحظة ذلك من خلال السلوك الذي اطلق عليه " لسلوك الإبداعي" الذي يشمل: [الاختراع - التصميم - الاستنباط -التأليف -التخطيط] فمن نلاحظه يقوم بذلك حسب هذا العالم فهو {مبدع} وهذا يستحق الرعاية والاعتراف به وتشجيعه والأخذ بيده.

ويحضرني هنا موقف العالم السوفييتي " كوفالوف" الذي دعا إلى ضرورة الاعتراف بالأخر لما لذلك من أهمية في حياة الفرد والمجتمع، حيث قال: إن الاعتراف بالآخر وبقدراته الذاتية تتضامن فيما بينها نفسياً وفيزيولوجياً، وحتى كيميائياً لتشكل بمجملها بيئة الخلق والإبداع الولّادة وكما قال " كوفالوف" فإن الاعتراف بالآخر ضروري ومهم ومحفز للاستمرارية في العطاء والإبداع، إن كان إبداعاً، وبدون هذا الاعتراف فإن النتاج أو الفعل أو ردة الفعل، قد لا تساوي فعل الفاعل أو القيمة المتوخاة .

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال قد يكون مستغرب لدى البعض ألا وهو من هم فرسان الإبداع؟ هل هم المسميات التالية؟ { الحاجات - الواقع - العلم – المعرفة - التجريب – التجربة }؟

البند الثاني: مستلزمات فرسان الإبداع.

إن المسميات السابقة والأسئلة بمجملها ماذا تحتاج ؟ إنها لابد تحتاج وتستحق إلى الأجوبة اللازمة التي يجب أن تعترف بأن فرسان الإبداع يتمثلون في كائن واحد كما تقدم، هو "الإنسان "، والذي يوظف ويكيف وينسق ويخلق من جميع هذه المسميات المتقدم ذكرها وغيرها متفاعلةً فيما بينها، وبين عقله وحاجاته وطموحاته التي يرسم، والواقع الذي يضعه أمام امتحانات التغيير والتطوير والابتكار المستمر، لذلك لابد من أن يتاح لهذا المبدع التالي:

أولاً. التعبير عن ذاته من الداخل دون تردد أو وجل، وأن يواجه تحديات الإبداع بعقل لا يعيقه عائق ولا يعتقله تخلف أو سالب، وأن يوفر له مقومات الإقدام والتجريب، ويُوفر له مبررات الإحجام أو الفشل إن حصل ، دون أي قصاص أو حساب ودون أن نجعل محياه يحمر أو يتصبب عرقاً ...

ثانياً. أن نتيح أو أن نخلق له البيئة الاجتماعية التي تجعله يحيا بيئته التي يرتجيها، والتي توفر له الخصائص التي تجعله ينال الذي يلزم من دراية وعلم وتجريب ومعطيات ينشدها في وطن سليم..

ثالثاً. إن ما تقدم لن يتحقق إلا من خلال المنهج العلمي التربوي، الذي يمكّننا من الكشف المبكر عن مبدعينا، ذاك المنهج الذي يبرز بوضوح خصائص ومواصفات الجيل الذي نتطلع إلى بعثه، والذي يكشف بالوقت نفسه، طليعة هذا الجيل من المبدعين، في مختلف المجالات والحقول، أي بمعنى أن نضع القاموس البشري الاستراتيجي الذي يحدد المعاني والمواصفات والخصائص التي تريدها من الفرد

بشكل عام، وتصل إلى المبدعين المتسمين بسمات العلم والإبداع، هذا النتاج الذي تنتجه هذه البيئة وهذا النهج، الذي عليه يتدربون.

البند الثالث: نتائج مكررة:

رغم أن الذي سنشير إليه فيه شيء من التكرار، غير أني أراه شيئاً من التأكيد، لأني أؤمن بأن المبدعين يدينون بتكوينهم وإبداعهم، إلى مصادر ثلاث هي :

- الاول: هو **المجتمع**. - الثاني: هو **الواقع** . - والثالث: هو **الحاجة**.

❖ - **أما بالنسبة للواقع.**

فإننا نجد بأي منتج صناعي زراعي يضيء الصورة التي نريد تحقيقها، وفي هذا المجال نأخذ القمح مثالاً، كونه منتج خضع لفكر المبدعين في جعله متعدد الفوائد وسد الحاجات، وللتدليل على ذلك، فإننا نعلم بأن للقمح أنواع، منها الطري ومنها القاسي، ولكل منهما سماته، هذه السمات التي تم كشفها نتيجة تمحيص وتفكير واستنتاج أوصل من فكر ومحص، إلى تلك السمات والخصائص التي تميز منتج كل منهما عن الآخر، هذه السمات تعطيه قيمة صناعية هامة، هذه القيمة الصناعية التي تشكل جاذباً للدول التي تُصنع موادا لها علاقة بالقمح القاسي مثل (المعكرونة) والقمح القاسي مشهور في جبل العرب وسهل حوران،

وبعد أن أُجري على القمح الأساسي بعض التحسينات لكي تزداد كمية إنتاجه، فقد أثمرت هذه التحسينات عن منتج جديد يحقق الغاية المطلوبة (ونرى بهذه النتيجة ابتكارا) ورغم أن هذا المنتج الجديد قد فقد خاصية الصمود أمام " الجفاف" (نرى به ابتكارا) رغم إن عدم صموده أمام الجفاف، شكل سلبية في الابتكار الجديد، ولكنه عزز وأبقى القمح الأصل " القاسي" منتجاً صناعياً مطلوباً.

obeikandl.com

من هنا ندرك واقعياً وعلمياً وعقلياً وفكرياً، بأن الواقع الذي يحتوي {الإنسان - والمناخ – والواقع} قدّم "المادة والمبدع والدور" الذين أثمروا دوراً خلاقاً في تكوينه البنيوي).

❖ - **المجتمع.**

إن الإنسان الفرد هو عضو من المجتمع، وهو الذي يمتلك قدرات ذاتية وطاقات طبيعية ومكتسبة، ويحوز خاصية الاستعداد الفطري "الفكري والذهني" للخلق و الابتكار، ولديه سمات تمكنه من قيادة أي فعالية إدارية وعلمية وسياسية و ثقافية...الخ، ولأنه يمتلك سمة مبدعة ومميزه تمكنه من السبر والتحليل واستنتاج النتائج، هذه السمة التي خُص بها الإنسان هي العقل، الذي يستطيع من خلاله أن يفعّل قدراته الكامنة، وأن يوظف وينسّق أي حركة أو سكنة منتجة وهذا العقل هو الجوهر الذي يجعل من تلك المصادر خالقة ومسببة للإبداع.

البند الرابع: الإبداع العقلي عبر التاريخ.

من هنا ندرك بأن العقل البشري كعضو نبيل كما تقدم، ليس هو طاقة استثنائية فحسب بل هو "دارة خلاقة " فيها من الطاقات والأسرار والقدرات التي نعرف بعضها ولا نحيط بمعظمها .

إنّ هذه النتيجة المتقدم ذكرها، هي نتيجة تحكيها وتفسرها مسيرة الإنسان الحضارية الخلاقة، كما تفسرها الومضات التي يعكسها وينطقها العقل بذاته، حين يترجمها من يمتلكه ويمتلكها بإبداعات حقيقية على الواقع.

إنّ هذا العضو النبيل الذي منحه الله لنا، يختزن طاقات عجيبة كما تقدم، و يدور في فلكه تفاعلات كيميائية معقده، عرفنا بعضها عن كثب واستنتجنا بعضها بعد تفكير عميق، ونبحث عن البعض الآخر من خلاله ومن خلال المعطيات التي نملكها، والتي نأمل بأننا قد نعرفها مستقبلا.

obeikandl.com

من خلال ذلك نستنتج بأن جميع القدرات الكامنة في الأعضاء النبيلة في الإنسان، والمتشكلة في تكوينه الذاتي، لم يتح لتوصيفها مسطرة واحدة ولا قياسا واحدا يقاس به وعليه إبداع المبدعين في حياة المجتمعات، لمعرفة قدراتهم العقلية والعلمية، عند كل حالة تتراءى لعلماء الاجتماع و الاقتصاد و السياسة و العلوم و الفلك ... الخ، وبخاصة عند الذين يواكبون مسيرة الكائن الحي العاقل المبدع وغير المبدع، في أي شريحة من شرائح المجتمعات وطبقاتها، حيث تأكد لنا أن الابداع ليس مرهوناً ومقتصراً على الفقراء أو الأغنياء، ولا على المتعلمين وغير المتعلمين ولا على الذين يظهرون لأول وهلة (أذكياء – أو أغبياء) وسواهم، لأن هذه العوامل وإن كانت تؤثر بشكل أو بآخر بهؤلاء المبدعين، الا أنها لا تؤثر تأثيراً حاسماً بإبداعهم، وإذا أردنا أن نسوق أمثلة على ما نقول نبين الآتي:

المثال الأول:

(لقد قدم لنا التاريخ ماضياً وحاضراً أمثلة حية، عن علماء ومشاهير كبار في القانون والطب والهندسة والفيزياء والفضاء والكيمياء، وقد برهنوا بأنهم مدركين ومستوعبين لاختصاصاتهم في العمق العميق والأفق الواسع، وهذا شكل تميزاً وابتكاراً خلاقاً لكل في مجاله، رغم أنه لم يصل إلى تصنيع وكشف علمي وتقني مجسد، في "نظرية أو جهاز مصنع " ولكننا وجدنا فيهم من تفرد في مهنته وتحقيق نجاحات مشهودة في القيادة والإدارة والأداء الأمثل والاستخدام الأفضل للآليات المتاحة، ولكن دون أن يبتكروا ويبدعوا آليات جديدة أخرى، رغم أننا نعلم بأن رجال القانون على سبيل المثال، يجتهدون ويضعون التشريعات الحديثة، ويوجدون الآليات المحدثة، التي تستند إلى قواعد اجتماعية معروفة ، استطاعوا من خلالها أن يرتقوا بها إلى قواعد محكمة مقبولة ومعروفة للكافة يقبلها المجتمع ويعمل في ضوئها.

ومن هؤلاء على سبيل المثال، من هم مؤتمنون على السرية المصرفية وعدم البوح بها، ورغم بساطة هذه السمة إلا أنها غير مملوكة للكافة، لهذا فهي تشكل قدرة

استثنائية، لا يمكن أن يفرط بها صاحبها مهما واجه من تحديات، ولا يجب أن يُفرط به وبها.

" إنه، فعلاً سلوكٌ مميز - من قبل من يؤتمن على وثائق تتصل بمصائر الأفراد والجماعات بل الشعوب وتبقى هذه الوثائق رهينة ضمائر مؤتمنة، تحمل قيماً وتحافظ عليها، وهذه خصيصة بل قدرة بحد ذاتها .ومن المفيد الإشارة إلى أن الإعلام العنصري يغيب كثيراً من المبدعين، ولم يعطهم حقهم، مثل العالم العربي (محجوب عبيد طه) الذي نقض نظرية نيوتن بقانون القوة والكتلة، وهو الذي عدل بمسار المركبة الأميركية أبولو 14، وكان سبباً أساسياً في نجاحها بعد أن فشلت المركبة أبولو 13 لخطأ في الحسابات التي اكتشفها، وهو العالم الذي اشترك في التحقيق عن أسباب كارثة (تشير نوبل) النووية.

أما **المثال الثاني الآخر**:

إن هذا المثال قد يبلور أكثر مقصدنا المشار إليه سابقاً، حيث سجّل التاريخ البشري إبداعات وابتكارات كثيرة لمبدعين متفوقين أو متعثرين في دراستهم مثل (آينشتاين) الذي لم يكن متفوقاً في دراسته، وكذلك "نيوتن" الذي أحبت والدته أن يكون مزارعاً ورفض، وكذلك الأمر بالنسبة إلى مبدعين كانوا متخلفين بين أترابهم ومتعثرين، كما شهد بروز قادة سياسيين من طبقات غنية، وآخرين من طبقات فقيرة كادحة لعبوا أدواراً تاريخية عظيمة، و قدموا إبداعات خالدة للإنسانية وكذلك لشخصيات مواكبة في السياسة وأخرى طارئة.

obeikandl.com